

حوار العبد ومولاه* ...

شرحها وعلق عليها

د . فيصل عبد الله - جامعة دمشق

لدينا اليوم ثلاث قصائد بابلية مكتوبة بلغة اكادية ولهجة بابلية، بالكتابة المسمارية المعروفة . سميت الاولى « القصيدة الربوبية (أو الربانية) أو Théodicée babylonienne كما وردت بالترجمة الفرنسية في كتاب : ديانا الشرق الادنى ** . . والثانية اسم المعبذ الحق Le Juste Suffrant والثالثة حوار السيد والعبد .

تعالج القصيدة الاولى مشكلة الالم والشر ونقيضهما العدالة الالهية . وأما الثانية، يبدأ مطلعها بثلاث كلمات هي : «لأصبح اله الحكمة» فهي الاخرى مناجاة ربانية وعذاب بريء يكشف عنه كاتب القصيدة . والثالثة « حوار العبد ومولاه » ، هي مناجاة عبثية ذاتية ، كتبت على شكل حوار بين عبد ومولاه .

لقد صنفنا هذه القصائد بعد ترجمتها من الاكادية ضمن الادب الانساني الرافدي ويعد أقدم ما أبدعه الفكر الانساني في تاريخه ، اذ انها تعود الى القرن الثاني عشر، وربما الثالث عشر ، قبل الميلاد ، وان كان تحديد زمن كتابتها بالضبط غير ممكن ، ولكنها تمثل بالتأكيد المجتمع الرافدي والبابلي ، الذي بلغ شأواً كبيراً في الادب في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ، بعد مضي أكثر من خمسة قرون على حكم

* ترجم هذا النص الى معظم لغات العالم . ولكن الترجمة الرئيسية والاحدث والمباشرة من اللغة الاكادية ، وهو ما قام به R. Labat، وزملاؤه في المصدر المذكور آنفاً . ولا استبعد وجود ترجمات عربية متفرقة يتعلم ذكرها بسبب عدم وجود فهرسة او مكتبة متخصصة بالمشورات العربية في تاريخ الادب القديم .

ما نود قوله ان ترجمتنا هذه استندت على ترجمة الاستاذ Labat ، الا انها لم تتوقف عندها، فقد اخذنا ايضاً من الترجمتين الانكليزية والالمانية . وقبل هذه وتلك ، من النص الاكادي ، فتمكنا من فهم كثير من المقاطع الاكادية ونقلها الى العربية بكلمات متغايرة . ونشير في هذا الصدد الى ان العمل اللغوي او الشعري يفقد الكثير من معناه عند ترجمته الى لغة اخرى . الا ان الامر يكون اقل خطورة ، عندما تكون الترجمة بين لغتين اختين ، اضيف الى ذلك جهود المترجمين الاوربيين ، وخاصة مصدرنا المذكور . اذ جهد الاستاذ Labat في وضع المعنى والصياغة في قالب متين واكيد وامين .

** R. Labat, Les religions du Proche - Orient, Paris 1970, p. 342 ss

دراسات تاريخية ، العددان ٤١ و ٤٢ ، اذار - حزيران ١٩٩٢

حمورابي صاحب القانون أو الشريعة الشهيرة باسمه ، واغتنى الفكر الديني والدينيوي البابلي بارث سومر وأكاد الذي يعود الى الالف الثالث ق.م .

تألف القصيدة التي سنورد ترجمتها من جديد هنا أي قصيدة العبد ومولاه من احد عشر مقطعا ، وتعالج موضوعا لا يبعد كثيرا عن موضوع القصيدتين آنفتي الذكر . وهي حوار بين مولى وعبد .. قد يبدو الامر سهلا في البداية ، ولكنه يأخذ في التشابك والتعقيد لي طرح علينا مجموعة أفكار فلسفية متناقضة وعشبية ، لا تقل أهمية في طرحها الجريء عما يواجه انسان اليوم من مشكلات الحياة .

يبدأ المولى بدعوة العبد الى الاستماع الى ما سيقول وما يريد ان يتقدم عليه من فعل . وسرعان ما يؤيده خادمه بلا تحفظ . ولكن السيد يرجع عما نوى ، فعله ، فيستنكف العبد ثانية استجابة لتبدل رغبة سيده ، جاهداً في ايجاد مبرر آخر اكثر اقناعا مما سبق . وهكذا دواليك ، فاذا أراد السيد الذهاب الى وليمة القصر أو وجد العبد له المبرر اللازم ، وإن قرر عدم الذهاب خلق له مبررا آخر مناسباً ، وإن أراد ان يشعل نار ثورة ضد القصر ، أو الزواج والحب ، أو التعبد والتقوى ، أو استثمار المال والتجارة ، أو الانصراف الى أعمال الخير ، بحيث يبدو الامر وكأن العبد يراوغ لانقاذ نفسه من غضب معلمه أو مولاه ، إلا ان الشاعر القديم قد استعرض بطرافة جميع الخواطر والهواجس الانسانية اليومية ، التي تظهر في نهاية المطاف ان لا حل لها يمكن تبنيه ، ولا نجاة الا بالموت ! قد يكون الجواب بالنفي بعد قراءتنا القصيدة ، اذ لا تكشف تماما عن نهاية واضحة ، ولس هذا قيمة ما نبحث عنه في قصيدتنا ، فهي تلقننا درساً في الحوار الذاتي الذي قد يكون متهوراً مندفعاً ، في البداية ، ومن ثم تهدأ النفس الثائرة باحثه عن حل عشبي قد يكون الاستسلام أو الموت ، ويطرح لنا الحوار مزايا النفس الانسانية ومزاجها ، فمن العبث واللامسؤولية وابتغاء الموت والخلاص ، تبدو لنا الشخصية المهتزة التشاؤمية . والتشاؤم والتفاؤل نقيضان ، وموجودان في كل نفس ، وقد يرجح أحدهما فيطبع النفس بطابعه . وهكذا عرفنا أقدم جذور التشاؤمية التي تعكس جزءاً من معاناة فلسفية ليست مقتصرة على عصر معين ، ومن جهة أخرى ، قد يكون الفنى السريع وكثرة النعم من العوامل التي اثرت على هذا السيد كما على كثير من امثاله وابطرته . فال فراغ الفكري ، الذي يزداد خطره على ذوي النعم الكبيرة ، قد يؤدي بهم الى مصير مماثل .. عبث ومراوغة ، وضياح . ويبدو مثل هذا السيد للآخرين على أنه ناقد حاقد ، أو طامع لجأه أو مال او عايت يتسلى بقتل الوقت ، مجبراً عبده على التكيف مع نواياه ورغباته . ونعلم من خلال أجوبة العبد ، انه لا يتوانى عن مسايرة سيده ، والدخول في لعبة المراوغة والعبث .. إن السخرية والعبثية والقدح والذم الاجتماعي هي الصفات الواضحة في

الحوار ، وتنقل لنا أحيانا لهجة جدية وخطرة في طرحها للمشكلة ، وهذا ليس تناقضا وحسب ، بل يحمل معنى أعمق هو معنى الوجود الانساني . وهي المشكلة التي طرحتها جميع الديانات التي تلت هذا النص بقرون عديدة .

وختاما ، إذا أراد الانسان القديم التخلص من هذه المراوغة والتناقض في مواجهة مشكلاته الحياتية فليس أمامه الا لقاء ربه . انه أودع في الله كل الاجابات التي تبدو مستحيلة على تفكيره ؛ فما على الانسان وفق مفهوم ذلك العصر إلا أن يركع أمام الله . وهكذا كان أمر السيد الذي فكر في النهاية بارسال عبده الى منيته ، أو الموت ، لعل روحه تعود . وتحمل اليه الجواب ، جواب هذا التناقض الانساني . . ولكن العبد يسأل سيده اذا قتلتني ماذا ستفعل بدوني ؟ انك لن تستطيع أن تعيش أكثر من ثلاثة أيام ! .

حوار العبد ومولاه

المولى : أيها العبد ، اقترب مني !

العبد : نعم مولاي ، نعم !

م : اذهب ، أسرع ، وجهز لي عربة ، كي اذهب الى القصر)

ع : اذهب مولاي . اذهب . . سيكون لك فائدة ! عندما سيراك الملك ، سيفمرك كرمًا .

م : ايه أيها العبد ، أنا لست ذاهباً الى القصر !

ع : لا تذهب ، مولاي ، لا تذهب (فما أن يراك الملك حتى يرسلك حيث لا تريد ، ويدفعك في طريق مجهولة . وسيذيبك العذاب ليلَ نهار .

م : ايها العبد ، اقترب مني !

ع : نعم ، مولاي ، نعم !

م : أسرع ، احضر لي ماءً أغسل يدي وأتغدى)

ع : تغدّ مولاي ، تغدّ فوجبة طيبة ، تشرح القلب . . ان تأكل من رزق ربك ، وان تغسل يديك . . فسيمضي نهارك . .

م : كلا . . كلا . . أيها العبد . . لن أتغدى !

ع : لا تتغد مولاي .. لا تتغد ، ان تجوع حتى تأكل ، ان تعطش حتى تشرب هذا
ما يلزم الرجل)

م : يا عبد .. تعال بين يدي !

ع : أجل .. مولاي .. أجل !

م : اذهب .. وجهز لي عربة كي اذهب للصيد !

ع : اذهب مولاي اذهب . فالرجل الذي يتجول في الارياف جعبته مليئة ، والكلب
الذي يتصيد ، يحظى بمقام يسحقها ، والغراب الذي ينطلق في الارياف يبني له
عشاً ! والحمار الوحشي الذي يجوب المراعي يحظى بمزماره .

م : ولكن أيها العبد ، لا أريد أن اذهب للصيد !

ع : لا تذهب مولاي : لا تنهب ! فالرجل الذي يجوب الارياف ، يتعب فكره ،
والكلب الذي يتصيد يسحق أسنانه ، والغراب الذي يطوف الارياف فمسكنه
ليس إلا شقاً في جدار . والحمار الوحشي الذي يجوب المراعي ، لا مأوى له
إلا البادية .

م : يا عبد ، تعال بين يدي .!

ع : نعم مولاي نعم !

م : ساقوم .. بثورة .!

ع : افعل هذا ، مولاي ، افعل ! اذا لم تثر ، فكيف ستلبس ، ومن سيعطيك
لتملاً جعبتك

م : حسن .. أيها العبد ، ولكن لن أقوم بثورة !

ع : لا تفعل مولاي ، لا تفعل ! فالرجل الذي يثور ، إما أن يقتل ، أو يسلم جلدته ،
أو تقتلع عيناه ، أو يعتقل ، ويلقى في السجن !

م : يا عبد ، اقدم !

ع : أجل مولاي ، أجل !

م : أريد أن أعشق امرأة !

ع : اعشق مولاي ، اعشق ! فالرجل الذي يعشق امرأة ، ينسى قلقه ويذهب
وسواسه !

م : حسن أيها العبد ، لا أريد أن أعشق امرأة !

د. فيصل عبد الله

ع : لا تعشق مولاي ، لا تعشق ! فالمرأة كالبئر ، نعم ، كالبئر ، انها خزان ، انها لحد ، انها خنجر مشحوذ يقطع حنجرة الرجل !

م : ايها العبد ، تعال بين يدي !

ع : نعم مولاي نعم !

م : اسرع ، اذهب واحضر لي ماءً اغسل يدي ، اريد تقديم الاضاحي الى ربي !

ع : افعل ، مولاي ، افعل ! ، فالرجل الذي يضحي الى ربه ، يكون قلبه سعيدا ، ويكسب حسنة فوق حسنة !

م : جيد ، ايها العبد ، لن اقدم الاضاحي الى ربي ! .

ع : لا تفعل ، مولاي ، لا تفعل ، هكذا تعلّم ربك ان يتبعك كظلك ويطلب منك : « اين عبادتي ؟ الا تستشيرني ؟ » او اي شيء اخر ؟

م : يا عبد ، تعال هنا بين يدي ! .

ع : نعم ، مولاي نعم !

م : اريد أن اقترض مالا بالفائدة .

ع : اقترض هكذا ، مولاي ، اقترض ! فالرجل يحافظ على ماله ويضاعف الفائدة !

م : حسن ايها العبد ، ولكنني لا اريد أن اقترض مالا بالفائدة !

ع : لا تقترض مولاي ، لا تقترض ! اقراض المال لذيد مثل حب المرأة ، ولكن ارجاعه اصعب من ولادتها ! اذ يبتلعون مالك ، ولا يتوقفون عن لعنك ! وينكرون عليك المال والفائدة !

م : يا عبد ، تقدّم بين يدي !

ع : نعم مولاي نعم !

م : اريد أن اخدم وطني !

ع : افعل هذا ، مولاي ، افعل ! فالرجل الذي يخدم وطنه ، فاعماله تسجل لدى الاله مردوك ! .

م : ولكن ايها العبد ، لا اريد أن اخدم وطني !

ع : لا تفعل ، مولاي ، لا تفعل ! اصعد على اطلال الماضي ، وتجول بينها ، وارقب الجماجم المختلطة بين فقير ونبييل ، فمن الذي صنع شرا ؟ ومن الذي صنع خيرا ؟

م : ايها العبد ، تعال بين يدي !

ع : نعم ، مولاي ، نعم !

م : ما هو الخير اذا ؟

دقْ عنقي وعنقك ؟

ان يرمي المرء نفسه في النهر ؟ هل هذا هو الخير ؟

من ذا الذي عَظَمَ حتى وصل الى السماء ؟

من هو عظيم حتى يحتضن الارض ؟

حسن ! ايها العبد ! سوف أقتلك ، وأجعلك تهلك قبلي !

ع : أجل ، مولاي ولكنك لن تعيش بعدي ثلاثة ايام !

* * *

يبقى علينا الاجابة على سؤال آخر يتعلق بهذه المقطوعة الادبية الرافدية التي تعود لأكثر من ثلاثة آلاف سنة على الأقل . وهو ما هي صلة هذا كله بأدبنا العربي وهل يجب اعتباره الجزء القديم منه ، ام انه يبقى كما نقل الينا مترجما من لغات اوروبية سبقتنا في ترجمته من لغته الاصلية الاكادية ؟

اذا أخذنا النص الانساني بحد ذاته ، فان المشكلات الانسانية التي يطرحها الكاتب ، من خلال معاناة اجتماعية وسياسية ، لا تختلف بكثير أو قليل عن معاناة الانسان في العصور اللاحقة ، عصور اليونان والرومان التقليدية أو العصور الاسلامية - المسيحية الوسطى أو عصورنا الحديثة ! ان النص يطرح لنا موقف العبث والحيرة امام ، الطريق الذي يجب ان يسلكه الانسان لمواجهة أوضاع اجتماعية وسياسية جائرة ، كما يطرح لنا موقف اليأس والاستسلام ! ليست المشكلة قائمة حتى اليوم .. ؟ هل هناك من جواب أو نصيحة تسدى لمن هم في مثل تلك المواقف ! ان احدا لا يستطيع الجزم والتأكيد ، بل هنالك احتمالات وآراء ، وهناك العوامل غير المنظورة التي تفعل فعلها وتؤدي بالناس الى اتخاذ مواقف بعينها .

نخلص الى القول ، وهو القصد من هذا السؤال ؟ ان هذا الادب الذي يعود الى العصر البابلي - الاشوري في منتصف الالف الثاني ق.م. يمثل مجتمعا سالفًا لمجتمع اليوم ، ونعتقد أن كثيرا من مشكلات التراث التي استعصت على الفهم ، أو لاقت رفضا أو انطواء لعدم وضوح أسلوب التعامل معها ، تكمن في جهل الجذور البعيدة ، أي الأكثر بعداً من الأديان السماوية التي جاءت في مراحل متقدمة ، وكان المجتمع قد قطع أشواطاً بعيدة في مضمار الأدب وفلسفة الحياة . فالمطلوب من لغويينا وأدبائنا ان ينهلوا من هذا الأدب ، ويبحثوا في أطاريحه، مطلوب منهم تعلم لغته الأصلية القريبة من عربيتهم اليوم ، كي يقدروا قيمة هذا الشعر في ذلك الزمن المبكر ، ويطلعوا على أقدم فنون الشعر السلفي للشعر العربي .

